مصر: الغضب الشعبيّ، إلى أين؟

أحمد الخميسي

ذروة الغضب

ما إنْ تبنّت القمةُ العربيّةُ في بيروت (٢٧ – ٢٨ مارس) المبادرةَ السعوديّةَ للسلام وما طرحتْه من تطبيع مع إسرائيل واعترافٍ كاملٍ بها، مقدَّميْن مسبَّقًا، حتى جاء الردُّ الإسرائيليُّ في ٢٩ مارس بعمليّة اجتياح بربريّةٍ للضفّة الغربيّة، استكمالاً لحرب ١٩٤٨ «التي لم تُسْتكمل» على حدّ تصريح رئيس الوزراء الإسرائيليّ آرييل شارون. وكانت مشاهدُ البطولة الخارقة والقسوة قد شَحَنَتْ بالغضب الجماهيرَ المصريَّةَ على مدى عامٍ ونصف من الانتفاضة، أيْ منذ دخول شارون ساحةَ المسجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر بحراسة ثلاثة آلاف عسكريّ. وانطلقت المظاهراتُ من كلّ ركن في مصر. وفي ٣ أبريل تقدَّم المواطن أحمد محمود من محافظة القليوبيّة ببلاغٍ يَطْلب فيه مساعدتَه في العثور على ابنه وائل (١٣ عامًا) الذي اخْتفى تاركًا خلفَه رسالةً كَتَبَ فيها: «إذا أردتَ العثورَ عليَّ فستجدني مع المقاتلين الفلسطينيِّين.» وفي ٦ أبريل احتشد الطيّارون المصريُّون في مسيرة بمطار القاهرة الدوليّ، وطالبوا بوقف كلّ الرحلات المتّجهة إلى إسرائيل.

وسرعان ما قدّم طلبةُ جامعة الإسكندرية أولَ الشهداء، واسمُه محمد السقا الذي قُتل برصاص الشرطة المصريّة في ٩ أبريل، عندما تصدّت قواتُ الأمن لمظاهرة من نحو ثمانية آلاف طالب حاولوا الخروجَ من الجامعة والتوجُّهَ إلى المركز الثقافيّ الأمريكيّ في شارع الفراعنة لإعلان احتجاجهم على الدعم الأمريكيّ المطْلق لإسرائيل. وكان محمد السقا قد قال لوالدته صباحَ يوم مصرعه: «عاوزْ أموت موته حِلْوه ترفرف على الدُّنيا.» وكان له ما أراد. ولم ينقضِ أسبوعٌ حتى حاول ميلاد محمد (٢٣ سنة ـ فلاّح) أن يجتاز في ١٧ أبريل الحدودَ من رفح إلى فلسطين، فتصيّده قنّاصٌ إسرائيليّ من أحد أبراج المراقبة وقَتَله. ويقول ربيع مبروك، صديقُه، إنّ الشهيد قال له قبل سفره إلى رفح: «حياتنا حرام في ضوءِ ما نراه في فلسطين.» وفي جنازة ميلاد بمدينة الدلنجات في محافظة البحيرة بكت أمُّه وهي تُطْلق الزغاريد هاتفةً: «شَرَّفْت العرب يا زين الشباب.» وفي ١٨ أبريل حاولتْ فتاةٌ مصريّة أخرى عبورَ الحدود من طابا وهي تَحْمل كميّةً من المتفجِّرات للالتحاق بالانتفاضة. وفي ٢٠ أبريل أفادت التقارير أنّ مصريّاً هاجم سائحًا إسرائيليّاً يُدعى فرانك ماي، أثناء سيْره على شاطئ البحر الأحمر قرب مخيم نجم البدوي، وطعنه بسكّين فقتله؛ وصرَّح ناداف كوهين من السفارة الإسرائيلية في مصر بأنّه لا يدري إنْ كان الدافعُ وراء الجريمة سياسيّاً أم جنائيّاً. وفي ٢٠ أبريل نظرتْ محكمةٌ مصريّةٌ في دعوى تقدَّمت بها السيدة درية رامي لطرد السفير الإسرائيليّ جدعون بِنْ عامي من الفيلا الخاصة بها التي يقيم بها السفيرُ في المعادي.

وفي أبريل نفسه أعيد من الحدود قرابة ١٥ تلميذًا إلى ذويهم، تتراوح أعمارُهم ما بين ٩ سنوات و١٥ سنة، كانوا قد هربوا إلى العريش ورفح للقتال في فلسطين. وفي ٤ مايو اعتقلت الشرطةُ المصريّةُ شابّاً من حي الزاوية الحمراء الشعبيّ بالقاهرة يُدعى محمد عزب (٢٠ عامًا) عند الشريط الشائك في رفح لدى محاولته التسلُّلَ إلى غزّة للقتال مع الفلسطينيِّين. وفي ٥ مايو أحالت السلطاتُ المصريّة إلى النيابة شابَّيْن بتهمة محاولة عبور الحدود، الأول سلامة غنيم (٢٤ سنة) والثاني شكري عودة (٢٦ سنة): وعند سؤال الاثنين قالا إنّهما تأثّرا بالأحداث في فلسطين وقرّرا الانضمام إلى المقاومة. وللمرة الأولى منذ اندلاع انتفاضة الأقصى يَظْهر في مصر طَلَبَةٌ يلَفّون رؤوسَهم بعصابة حمراء كُتب عليها: «استشهاديون.» وحين فَتَحت الجامعاتُ قوائمَ المتطوّعين للقتال في فلسطين عُبِّئتْ بمئة ألف اسم من الشباب. وفي العريش تُوفّيتْ سيدةٌ في الخمسين من عمرها بذبحةٍ من شدة القهر، وهي تتابع أخبارَ فلسطين أمام شاشة التلفزيون. ذلك أنّ ما جرى كان أفظعَ وأشدَّ قسوةً من قدرة العقل على احتماله أو تصوره، فأسال دموعَ المصريين وأشْعل حنقهم.

استيقظ المصريُّون وسألوا: أين جيشنا المصريّ، وعلام كان تسليحه إذا لم ينفع الآن؟

وتطايرتْ شراراتُ الغضب ردودَ أفعالٍ شعبيّةً، وفرديّةً، وبطوليّةً، من حريق مظاهراتٍ لم تهدأْ بمصر. و لم تبقَ جامعةٌ أو مدرسةٌ أو جامعٌ أو بيتٌ أو دكانٌ أو روضةٌ للصغار لم تَخْرج إلى الشارع. وللمرة الأولى بعد ربع قرن من توقيع مصر على معاهدة السلام المصريّة ـ الإسرائيليّة في ٢٦ مارس ١٩٧٩، تصبح السياسةُ عملَ كلّ فرد في كلّ مكان وكلّ وقت: صباحًا وظهرًا ومساءً؛ في سيّارات الأجرة، وداخل المعاهد، والمقاهي والمساجد والكنائس والنقابات والجامعات والبيوت؛ في المحادثات الهاتفيّة، وعبر الانترنت، وبواسطة الرسائل القصيرة المتبادلة على المحمول. لقد أصبح «الحدثُ الخارجيُّ» فجأةً «حدثًا داخليًا» من صميم الشأن المصريّ. ولم يعد هناك أحدٌ، كبيرًا أو صغيرًا، إلا وتمنّى أن يموت «ميتةً جميلةً ترفرف على الدنيا» كما قال محمد السقا لوالدته. يقول الطالب أحمد نصر من جامعة القاهرة، التي شهدتْ أعنفَ مظاهرات طلابيّة: «أنا على استعداد للقيام بأيّ شيء من أجل فلسطين، خاصةً في ظلّ تخاذل الحكومات العربية.» ويقول أسعد بكر وهو تلميذٌ في الثانية عشرة: «أنا لا أكره سوى إسرائيل.. وعلى استعداد لفعل أيّ شيء.. لتفجير نفسي من أجل الفلسطينيّين.»

وإلى جوار مشاعر التعاطف الحارّة مع شعبٍ يباد، تغذّى الغضبُ من اعتبارٍ آخر كان يَخْرج ببطء من العتمة إلى ضوء الوعي. ذلك أنّ المظاهرات قُمعتْ في كلّ بلد عربيّ بشكلٍ أو بآخر، وسَقَطَ منها شهيدٌ في البحرين هو محمد جمعة علي (وهو عاملُ نظافة) توفّي في ٧ أبريل متأثّرًا برصاص الشرطة المحليّة وهي تواجه المظاهرةَ في ٤ أبريل، وشَيَّعت البحرين جثمانَه ملفوفًا بالعلم الفلسطينيّ. وفَتَحَت السجونُ في كل بلد عربيّ أبوابَها للكثيرين: واعتقلت السلطاتُ في مصر مثلاً الطلبةَ الناصريّين والماركسيّين والقوميّين وقياديّين وسياسيّين أغلبُهم من التيّارات الإسلاميّة النشطة. وبينما كان الفلسطينيُّون يَجْمعون أشلاءَ أحبّائهم قطعةً قطعةً من مخيّم جنين، دان الأمير بندر، السفيرُ السعوديُّ في واشنطن، العمليّاتِ الفدائيّةَ في ٢٤ أبريل. وكشفت الأنظمةُ العربيّةُ عن هوانها في مواجهة المجزرة، وعن قلة حيلتها. وفي حين قَطَعت النيجر علاقاتها الدبلوماسيّةَ بإسرائيل في ٢١ أبريل، لم تجرؤ الحكومة المصريّة على طرد السفير الإسرائيليّ أو وقفِ بيع بترول مصر الذي استُخْدِمَ وَقودًا للدبّابات الإسرائيلية وهي تَرْصف أزقّةَ جنين بضلوع الأطفال وعيونهم.

صحوة العقل المصريّ

شيئًا فشيئًا كانت مشاعرُ التعاطف الحارة تختلط بشعور عميق بمرارة المهانة والخديعة. فقد تبيّن للجماهير المصريّة بشكلٍ ساطع أنّ الأنظمة، التي مارستْ دومًا أحقرَ أشكال الغطرسة في الداخل، قد خدعتْها طويلاً بمظهرها، فاستكان الناسُ إلى الخوف منها، وهي ليست إلا نمرًا من ورق، فلماذا إذن تهيَّبوها طوال تلك العقود؟ ومنذ أن وقّعتْ مصر معاهدةَ السلام مع إسرائيل في ٢٦ مارس عام ٧٩ والمصريُّون يترقبون السلامَ، إنْ لم يكن الرخاء. لكنهم وجدوا أنّ فتاتَ ذلك السلام نفسه غيرُ آمن، ومهدَّدٌ بتصريحات إسرائيليّة علنيّة بقصف السدّ العالي واقتحامِ الجنود الإسرائيليين لمناطق حدوديّةٍ في رفح بدعوى البحث عن الفلسطينيّين. إذن، لا رخاء، ولا سلام، بل ولا نصف دولة فلسطينيّة تَحْفظ ماءَ وجه العرب وتصون لهم الأماكنَ المقدّسةَ على الأقلّ. لا شيء سوى المجزرة، وتمريغِ كرامة القادة العرب، وحصار عرفات وإجباره على استنكار دماء الشهداء، والتلويح بضرب كلِّ مَنْ تسوِّل له نفسُه أن يفتح فمَه. أما شهداؤنا وقتلانا فإنهم ليسوا سوى «قتلة ومجرمين» على لسان البيت الأبيض الأمريكيّ. وتبخّرتْ في الشارع المصريّ من شدة المهانة كلُّ المياه التي صُبَّتْ لغسل العقل الوطنيّ من دماء الحروب مع إسرائيل، ولتذويبِ علاقته التاريخية بقضايا التحرُّر العربيّة، ولتمزيقِ قرابته إلى الشعب العربيّ.

مصر: الغضب الشعبي، إلى أين؟

كان الجميع قبل اجتياح ٢٩ مارس يعرفون «ما هو الموضوع في مصر،» واستيقظوا فجأةً يسألون جميعًا: ما هو الموضوع؟ أين اتفاقيّات كامب ديڤيد؟ ألم يمرّ عليها عشرون عامًا؟ ألا تصبح ملغاةً تلقائيّاً؟ كيف يمكن التطبيعُ مع دولةٍ نازيّة كتلك؟ أين جيشُنا المصريّ؟ وعلام كان تسليحُه زمنًا طويلاً إذا لم يَنْفع الآن؟ ولماذا نعيش في ظل قانون الطوارئ منذ عام ١٩٨١ إلى الآن؟ ولِمَ تبدو الشرطةُ المحليّة في كثير من الأحيان كأنها ترتدي أزياءَ الجنود الإسرائيليّين وتُمْسك بعصيّهم وتنوب عنهم في قمع الراغبين في مساندة الفلسطينيّين؟ ولماذا لم يستطع القادةُ العرب أن يقدِّموا سوى مبادرةِ سلامٍ خانعةٍ في قمّة بيروت، سَبَقتْها مبادرةٌ ليبيّةٌ بضمّ إسرائيل إلى الجامعة العربيّة، ثم مبادرةٌ ليبيّةٌ أخرى بتذويب الشعب الفلسطينيّ في دولة «إسراطين»؟ ولماذا كان أقصى ما تمكّنوا منه هو الدعوة إلى وقف ضخّ النفط، وهي دعوة جاءت من بغداد المنهكة فلم يستجب إليها أحدٌ بل قالت الكويت «إنّها دعوةٌ مشبوهةٌ»؟ وكيف تمكّنتْ نيجيريا ومقاطعتان في بلجيكا ـ وهي الأبعد ـ من قطع علاقاتها بإسرائيل ولم تجرؤ دولةٌ عربيّةٌ على ذلك؟

من هذه الزاوية كانت المظاهرات المصرية «حدثًا» بكلِّ ما رافقها من صحوة فكريّة ـ صحوةٍ جَرَّبتْ في الواقع العمليّ كيف ترتطم بالنظام في الشارع، وراقبتْ في الواقع العمليّ أيضًا كيف أَمْكن كيلومترًا مربّعًا واحدًا اسمُه جنين أن يَصْمد وحدَه عشرةَ أيام كاملة في وجه أعتى قوّة عسكريّة في العالم ليُحيي من جديدٍ طريقَ الكفاح المسلّح والتحرُّر.

وبلور الشارعُ المصريُّ غضبَه في شعارات المظاهرات التي كان الطلبةُ قوّتَها الرئيسيّة بحُكم ما لديهم من أماكن للتجمع، وبحكم أعمارهم الشابة، وذلك الجنوحِ للأمل الذي يتّسمون به. إنّهم الطلبة الذين تشكّل وعيُهم على ضوء الضربات الأمريكيّة المستمرّة للعراق وفلسطين. إنه جيل جديد انقطعتْ صلته بالحركة الوطنيّة ربعَ قرن، ووضعتْه الظروفُ في مواجهة أمريكا وإسرائيل مباشرةً من منطلقات سياسيّة متعددة. جيلٌ بلا أحزاب، بعد أن أسلمتْه أحزابُ المعارضة جميعًا إلى الإعلام الرسميّ في صفقة مع الحكومة، وتخلّى عنه اليسارُ مع زوال الاتحاد السوفيتيّ، وأفقدت الضرباتُ الأمنيةُ المتلاحقة الإسلاميّين قوتَهم.

وتبلورتْ شعاراتُ الطلبة وفق التيارات الفكريّة المختلفة في المجتمع المصريّ. فالتيار الإسلاميّ كان يَهْتف في الأزهر، موجِّهًا نداءه للشيخ أحمد ياسين زعيم «حماس»: «ياسين.. يا حبيب.. دمِّرْ، دمِّرْ تلّ أبيب»؛ و«خيْبر خيْبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود»؛ و«الجهاد.. الجهاد.» وأمّا الناصريُّون فكانوا يردِّدون: «عبد الناصر قالها في يوم.. اللي اتّاخدْ يومْ بالقوة ما بيرجعشي غير بالقوّة.» الماركسيّون القلائل من الجيل الجديد كانوا يهتفون: يا شارون يا حقير.. حقّ العودة والمصير،» ويحاولون ترويجَ شعاراتٍ عَلْمانيّة ترسِّخ الفهمَ السياسيَّ غيرَ الدينيّ للمواجهة مع إسرائيل. وأما الغالبيّة العظمى من الشباب فكانت تردِّد: «بالروح بالدم نفديكِ يا فلسطين»؛ و«أول مطلب للجماهير.. غَلْق سفارة وطَرْد سفير.» تلاميذ المدارس الصغار كانوا يَخْبطون أكفّهم بالكرّاسات في الهواء هاتفين: «واحد.. اتنين.. الجيش المصري فين؟»

تضاريس المظاهرات

رغم أنّ الطلبة كانوا هم القوّة المحرّكة المسموعة في مختلف الجامعات، فإنّ المظاهرات التي عمَّتْ مصرَ تجاوزتْ بأعمار مَنْ شاركوا فيها المرحلةَ السِّنيَّةَ للطلبة (١٨ – ٢٥ سنة)، فانخرطتْ فيها شرائحُ من كل الأجيال، من ستّ سنوات إلى سبعين عامًا. ومن الصعوبة بمكانٍ أيضًا أن تُنسب المظاهراتُ إلى تيّار سياسيّ بعيْنه، أو طبقةٍ بعينها؛ فقد عمّت المظاهراتُ مصرَ كلها، وشاركتْ فيها كلُّ الفئات بدءًا من فقراء الأزقّة في المدن والريف وانتهاءً بفتياتِ و نساءِ الأرستقراطيّة المصريّة من أغنى الطبقات. ومع

كانت القضيّة القوميّة، لا القضيّة الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة، هي التي هزّت مصر من شمالها إلى جنوبها

احتفاظ الشعار الدينيّ الإسلاميّ بوجوده الواضح، إلاّ أنّه تراجَعَ نسبيّاً لصالح الشعارات القوميّة التي جَرَفَت الجميعَ؛ كما انحسرت النعرة الدينيّة التي كانت أحرصَ ما تكون على التمييز بين المسلم والمسيحيّ.

ولوحظ – للمرة الأولى ـ الكثافةُ الشديدةُ للعنصر النسائيّ داخل المظاهرات. وكانت طالباتُ جامعة القاهرة يَقْفزن في المظاهرات إلى واجهات المصفّحات وسيّاراتِ المطافئ التي تَفْتَح خراطيمَ المياه لتفريق الطلبة، ويُلْصقن على زجاجها الأماميّ الملصقاتِ لكي تعوّق السائقَ عن الرؤية والتقدُّم إلى الأمام. فتياتٌ أخريات كنّ يتسلقن أعلى أسوار النقابات ويهتفن في مواجهة الشرطة بأَقْذع الشعارات: «يا أبناء العاهرة.. القدس هي القاهرة.»

وللمرة الأولى أيضًا تشارك طالباتُ وطلبةُ المدارس الأجنبية التي عُرِفتْ دومًا بميلها إلى التهوين من المشاعر القوميّة لدى تلاميذها. وأصبحت الجامعةُ الأمريكيّة، التي تقع في قلب القاهرة ويَدْرس فيها أبناءُ القادرين، بؤرةً ساخنةً للحركة والتظاهر وجمْع التبرعات، أسوةً بالمدارس الأجنبيّة الأخرى مثل ڤيكتوريا كوليدج والليسيه والفرير وإنجلِشْ سكول. وفي ١٥ أبريل تحرك طلبةُ ڤيكتوريا كوليدج في اتجاه مسكن السفير الإسرائيليّ بالمعادي للإعلان عن موقفهم، لكنّ الشرطة تمكنتْ من تطويق المظاهرة.

وللمرة الأولى يَضْغط الشارعُ لتوجيه الإعلام الرسميّ الذي طالما وجّه وبلورَ الرأيَ العامّ. فأخذ التلفزيون لأول مرة منذ زمن بعيد يبثّ الأغنياتِ والأفلامَ الوطنيّةَ القديمة التي رافقت الحروبَ العربيّة الإسرائيليّة، ويبيح هامشًا للنقاش الحرّ بشأن قضيّة فلسطين والصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، وآراءِ الفئات الشعبيّة. واتّسعت الصحافة ـ نسبيّاً ـ لمختلف الآراء. لقد قلبَ الشارعُ المصريُّ الوضعَ رأسًا على عقب، وأصبح يوجّه الصحافةَ والتلفزيون، بعد أن كان دورُه محصورًا في التلقّي السلبيّ.

غياب... وتردُّد

لكنّ المظاهرات الشعبيّة، رغم الصحوة الفكريّة وشعورها بقوتها، ظلت بلا زعامة أو مركز أو بؤرةٍ قادرةٍ على الانتقال بها من الحركة العفويّة المتدفّقة إلى وعاءٍ منظَّم يصون لها حرارتَها وقدرتَها على التواصل، كما كانت عليه الحال في تجربة «اللجنة العليا للطلبة والعمّال» عام ١٩٤٦ أو مظاهرات الطلبة عام ١٩٧٢. ولم تكن هناك أيضًا «زعامةٌ فرديّةٌ» تحيط بها تلك الهالةُ السحريّةُ من القبول العامّ، والقدرة على تأجيج الغضب، كما حدث في مظاهرات الطلبة عام ٧٢ حين قال الكاتب الكبير توفيق الحكيم عن أحدِ زعمائها وهو أحمد عبد الله: «لم يسبقْ لي أن استمعتُ إلى زعيم مفوّه بعد سعد زغلول سوى زميلكم الأستاذ أحمد عبد الله.» وافتقرت المظاهراتُ أيضًا، باعتبارها حركةً شعبيّةً وطقسًا للتحرُّر، إلى برنامج تُجْمع عليه القوى السياسيّةُ الحيّة.

كما أنّ الحركة ظلت تراوح بين دعم فلسطين كقضيّة خارجيّة، ومواجهةِ الحكومة لتغيير الوضع الداخليّ كأفضل سبيل لدعم فلسطين. وكان السؤال الرئيسُ الذي يَلُوح ويختفي مختلطًا هو: «كيف نشدّ أزر المقاتلين هناك؟ ولكنْ.. أليس من الأفضل أن نَضْغط لوقف بيع البترول المصريّ لإسرائيل لكي لا يكون وقودًا لدبّابات شارون؟» إنّ التردُّد بين هذين الطريقين للتضامن مع فلسطين ظل مربكًا، وغائمًا، وحائرًا: بين ضرورة التعجيل بضخّ الدماء والمال والمتطوعين لفلسطين وتأجيل أية قضايا أخرى موقّتًا، وبين الإدراك الكئيب لحقيقةِ أنّ العائق الحقيقيّ أمام وصول أيّ دعم هو الحكومة المصرية نفسُها ومعاهدةُ السلام. وبدا ذلك الارتباك في التردد بين شعارات من نوع: «يا حرية فينك فينك؟ أَمْن الدولة بيني وبينك»؛ وبين شعارات أخرى تكتفي بتأييد فلسطين. وهكذا لم يتّضح للمظاهرات ـ في أول مسوّدة ضخمة لصحوة العقل الوطنيّ ـ ذلك الحبلُ الغليظُ الذي يَرْبط تلَّ أبيب بالعواصم العربيّة، ولا تبينتْ لها الحقيقةُ التي اكتشفها جمال عبد

مصر: الغضب الشعبيّ، إلى أين؟

الناصر في الفالوجا عام ٤٨، وهي أنّ تحريرَ فلسطين يبدأ بتحرير مصر.

وبالرغم من كل ذلك، فقد مزّقت المظاهراتُ المصريّةُ أطرافَ الثوب الرسميّ، وجذبتْه، وهلهلتْه. لكنّ الشوارع التي حُرمتْ طويلاً من العمل السياسيّ لم تبلورْ بعدُ ما تريده بدقة، ولم تستقرَّ بعد على «زعامة» ولو موقّتًا. ومع ذلك فقد سدت المظاهراتُ فجوةً اتّسعتْ في الذاكرة ربعَ قرن: بين أجيال شهدتْ أو سمعتْ عن حروب ١٩٥٦، و١٩٦٧، وحرب أكتوبر ١٩٧٣، واجتياح لبنان عام ١٩٨٢ من جهة... وأجيالٍ جديدةٍ عاشت على وهم «معاهدة السلام.» وانتعشتْ من جديدٍ روحُ المقاومة في رسائل لا تتوقف عبر الإنترنت، والهاتف المحمول، والتجمُّعاتِ التي تتقدَّمُ للتبرُّع بالدم، والمناقشات الساخنة في كل ركن، والبياناتِ الحادة، والمؤتمراتِ الجماهيريّة، وقوائمِ مقاطعة السلع الأميركيّة التي يُسلِّمها كلُّ فردٍ إلى الآخر، بلَ والإضرابِ عن العمل الذي قام به عمّالُ مترو الأنفاق في القاهرة. وربما لم يكن لأولئك العمّال أن يجرأوا على القيام بذلك الإضراب بمطالبه الاقتصاديّة لولا طقسُ الحريّة العام الذي أشاعته المظاهرات. وانتشرتْ شرائطُ كاسيت لمطربين شعبيّين بأغنيات تقول إحداها: «مَعْلِشْ يا عمّ بوش.. ع البُرْج اللي انضربْ.. الضربة لعلعتْ ومشيت سمعت.. عاوزين طيَّارة تانية تفرِّح العربْ!»

لقد وُلد الغضبُ الشعبيُّ العارم من الألم لما يَحْدث في فلسطين. ووُلِدَ أيضًا من طعم الخديعة المريرة التي جعلت الجماهيرَ تُسْلم قيادَها طويلاً لأنظمة عاجزة. وكانت القضيّة القوميّة، لا القضية الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة، هي التي هزّت مصرَ من شمالها إلى جنوبها، في المدن والقرى التي كان الفلاّحون فيها يقدّمون آخرَ جوال أرزّ في بيوتهم لدعم الفلسطينيين. وللمرة الأولى منذ ربع قرن يلتئم النسيجُ المصريُّ الاجتماعيُّ والسياسيُّ حول شعارٍ ومشروع جنينيّ لم يكتمل بعدُ بوضوح: المقاومة. وللمرة الأولى أيضًا يحاول الشتاتُ السياسيُّ المصريُّ لملمةَ روحِه المبعثرة، وأفكاره، وإرادتِه، كما يلملم الفلسطينيون أشلاءَ أحبّائهم قطعةً قطعةً من تحت أنقاض عمليّة أوسلو.

وفي هذا الإطار كان اعتصامُ المثقفين والكتّاب والفنّانين وإضرابُهم عن الطعام لنحو عشرة أيام، منذ يوم الثلاثاء ٢٣ أبريل في نقابة المحامين، بهدف حمل الحكومة على طرد السفير الإسرائيليّ من مصر. وحوّلت تلك الأيامُ العشرةُ مقرَّ النقابة المفتوح إلى خليّة حيّة، يتحرّك فيها مخرجون سينمائيُّون مثل علي بدرخان وتوفيق صالح، وكتّاب مثل بهاء طاهر وإبراهيم منصور، وقصّاصون وناشرون مثل محمد هاشم، وصحفيُّون مثل يحيي وجدي وكارم يحيي، وروائيُّون مثل سميّة رمضان، وشعراء، وفلاحون، وطلبة، وفنّانون تشكيليّون، يبيتون كلَّ ليلة على أرض الجامع الملحق بالنقابة، من أجل قَطْع كافة العلاقات الدبلوماسيّة مع الكيان الصهيونيّ. ولكنّ هذه قصة أخرى، رغم أنّها أول أشكال الاحتجاج التي تلجأ إلى سلاح الإضراب عن الطعام.

شيء واحد غدا مؤكّدًا للأطراف كلها: أنّ الصورة لا يُمْكن أن تَرْجع إلى ما كانت عليه قبل مظاهرات أبريل، وأنّ أيّة رتوش لن تعيدَ ما أحرقتْه ألسنةُ اللهب.

القاهرة

أحمد الخميسي

صحفيّ وقصاص ومترجم. له العديد من الكتب والمقالات. حاصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة موسكو. وهو المراسل الجديد لمجلة الآداب في مصر.